الجهة المستضيفة: شبكة فجر الثقافية

التاريخ: 09/12/2016

العنوان: الشيخ حسين الأكرف: أشعر بالمسؤولية أكثر من أي شعور آخر (الجزء الأول)

عبير محمد

يتحد الكلم والنغم، فينصهران في الصوت الآسر قوةً، ليخترق القلوب يمسّ شغافها، ويداوي النفوس بارتقاء وجداني. هي خلطة سحرية.. قد يسميها البعض خلطة النجاح. فهو امتلك هذه الأسلحة الثلاثة, الكلم والنغم وعذوبة الصوت, وظفر بلا ريب بقلوب الشعوب. وهو ما تحقق للشيخ حسين الأكرف في العالم العربي.

امتطى الأكرف صهوة النشيد الإسلامي في عمر العاشرة, إلا أن تلك الشعلة الوقادة بالموهبة، لم تشتد جذوتها إلا بعد مخاضات وثقافات متعددة عايشها، فصبّت في تلك الشعلة زيت الإرادة للنجاح وكذا صار. وعلى الرغم من المرحلة الهابطة التي مرت بها القصيدة العربية ككل، والتجارب غير المشجعة في الفن الإسلامي، إلا أن الأكرف استطاع أن يشيّد مدرسةً جديدةً في عالم القصيدة الإسلامية، طافت باسمه في أقطار العالم العربي.

الشيخ حسين الأكرف-43 عاما-لم يصبح أحد أبرز الأسماء في عالم الإنشاد الإسلامي بمحض الصدفة، بل كان كل ما قدمه من معاني الوجدان الإنساني، وما يحاكي همومه، ويساند قضاياه، ناجمًا عنه بأسلوب يشبع ذائقة الجمهور الفنية بكل أطيافه ومزاجه العام، بالإضافة إلى ذكائه الفني لتتكامل عناصر وصوله إلى قلوب الناس. هذا وأكثر، كان محور جلستنا مع الشيخ حسين الأكرف من مكتبه في بيروت. ومحور المقابلة، كان هو، صاحب الصوت الذي طالما رافقنا في "أتعبتني يا قلب"، واستنهضنا في "نحن لا نهزم"، وأشبع حاجاتنا الروحية في "لا شريك لك"، وتلك الإنسانية في "قلب أمي"، وتوّج وجع جرحنا الدائم, فلسطين, في "ستون حزنًا".

أكرف البحرين النجف وقم

بدأ الأكرف حديثه من الأماكن التي تركت أثرًا في شخصيته كما فنه، مشيرًا إلى عناصر ثلاثة تؤثر بها البيئة، وهي الذائقة الأدبية والفنية والثقافية. وفي الواقع فللبحرين الأثر الأول الغالب على شخصية هذا الأسمر العربي، وذلك يتجلى واضحًا في خلال حديثه: "البحرين هي النواة الأولى التي شكلتني".

أما مدينة النجف في العراق، فكانت فيها الدراسة الدينية، التي لم يغب عنها الإنشاد الإسلامي، ولو في الأروقة الضيقة للحوزة العلمية، في أيام ظلم الطاغية صدام حسين حيث: " م يكن في العراق مساحة لممارسة الإنشاد الديني"، وفي مقابل ذلك، كان يجد من العراقيين أفضل ترحيب بموهبته، وتقدير لصوته، حيث اعتادوا ان يتمثلوا أمامه بواحد من أمثلتهم المأخوذ من حكاياهم الشعبية: "لا بد أنه قد شرب من ماي الشط".

يقرأ الأكرف سطرين من قصيدة اعتبرها ثمرة تجربته العراقية فيقول: "زينب قرآن الإباءِ وامتداد من كربلاءِ.. يا بقايا النور بددي الديجور". أنشدها بعد عودته إلى البحرين في إجازة محرم، مشيرًا إلى أنه على الرغم من أنها للشاعر صادق الدرازي البحراني، لكنها أتت بلمسة نجفية، كما أتت معظم قصائد تلك الفترة، مستوحاة من القمع الذي شهده الأكرف خلال فترة دراسته في العراق.

ثم كانت إيران، الانفتاح لمجال الأكرف. فالمسألة مختلفة تمامًا هنا: "المجال مفتوح، والألوان متعددة". وجد الأكرف في قم، مساحة لممارسة هذه الشعائر و: "الطيف الحسيني واسع ومتعدد وألوانه كثيرة"، الذي كوّن لدى الأكرف رؤيا تستقرئُ الواقع بحيث: "باللاشعور والشعور"، فحدث له تغير داخلي.

بعد هذه التراكمات والمخاضات والأذواق المختلفة، جاءت مدرسة جديدة في الإنشاد، وذلك في العام 1992، أثناء عودته إلى البحرين في إجازة محرم. مدرسة مختلفة تلاقحت فيها هذه الثقافات الثلاث البحرينية والعراقية والإيرانية، فولدت مدرسة تعدد الألحان، وتخرّج منها الأكرف كما نعرفه اليوم.

"لم أخلقه ولكني خلَقته"

لا يدعي الشيخ حسين، أن هذه المدرسة هي تجربة ناضجة نضجًا كاملًا، إنما يعتبرها جديدًا احتاجته القصيدة والجمهور معًا، وذلك ما جعلها تتسيّد كل المدارس الإنشادية منذ من أكثر من عشرين عامًا، منتشرةً في أغلب بلدان الخليج كما في العراق والشام. فشكل هذا الأسلوب الجديد نقلة نوعية بالنسبة للملحن لقصر اللحن, وللشاعر بسبب تنوع اللحن، ولكن أعطى الأخير فرصةً أكبر للإبداع, كما وأعطى الرادود إيقاعًا جديدًا وحماسةً جديدة، حملت المعزي إلى التفاعل معها، لأنه شعر بأنها ترضي ذائقته، وتشبع حماسه، وتغذي حزنه.

يتكلم الأكرف بإسهاب عن امتداد هذه المدرسة بين مدارس عديدة، وخصوصًا تلك البحرانية القديمة، وهي ليست منفصلة عنها: "فكل رادود يقرأ بلونه، وأنا قرأت بكل الألوان، وجمعت كل ألوانهم بقالب واحد جديد, يبدو مختلفًا ولكنه ليس من العدم. لم أخلقه ولكني خلَقته". ويعزو الأكرف من جهة أخرى، نجاح هذه المدرسة، إلى الرواديد الذين انتسبوا إليها وساهموا فيها: "انضمت إلى هذه المدرسة أسماء شبابية مهمة، لولا انتماؤهم إليها، لكنت غريبًا فيها، ومن أهم هذه الأسماء جعفر الدرازي ومهدي سهوان في ذلك الوقت". التواضع نفسه تجده عندما تسأله عن طبيعة شعوره بالفخر كأي شخص قد يحقق ما حققه، فيجيب دون تردد: "إنما أشعر بالمسؤولية أكثر من أي شعور آخر".

في فترة التسعينات، ورغم رواج "مدرسة تعدد الألحان" رواجًا شديدًا، كان هناك من الرواديد مَن تمسكوا بمدارسهم و: "هذا أمر يثنى عليه", في فترة لاحقة ضعفت هذه المدرسة في البحرين، عندما اضطر رواديدها إلى مغادرة البحرين في فترة اندلاع الثورة في البحرين في العام 2011, واشتدت وانتشرت في الخارج في المقابل. أما اليوم فيحب الشيخ الأكرف أن يشيد بجهود وموهبة أحد روّاد هذه المدرسة وهو الرادود أحمد قربان: "العين عليه"، هكذا يلخص دوره في تفعيل هذه المدرسة، وجذب مجلسه لجموع الناس المشتاقين لهذا الأسلوب. يبتسم الشيخ حسين حين يتكلم عن قربان: "أحمد من أبنائي الروحيين وصديق وأخ ورافقني لسنوات طويلة".

بين الضعف والقوة

طال حديثنا مع الشيخ حسين حول القصيدة العربية متناولين مرحلة الهبوط التي تمر بها، فكان له موقفه بهذا الصدد بالدعوة إلى عدم إطلاق الأحكام العامة، لأن هناك نصوصًا رائعة لشعراء ومنشدين في قلب هذه المرحلة، على الرغم من أن رؤوس وأقطاب الإنشاد هم من يهملون النص: "عندما يقدم مشهور من الرواديد نصًّا ركيكًا يعطي انطباعًا عامًا على الإنشاد كلّه من أثر الشهرة فيوسم المرحلة كلها". أما القصيدة القوية والراقية فهي ما زالت موجودة هنا وهناك برأي الأكرف: "على الصف الأول من الرواديد مسؤولية كبرى في هذا الشأن".

ولا ينسى الأكرف أن للخمس سنوات الماضية تأثيرًا على مزاجية الشعراء، لما تحمله من حروب وقتل وتشرد: "قذيفة هنا، وضحايا هنا، ودم هناك، لا يترك للمخيلة إلا الغضب والحزن والسأم". إلا قصيدة الثورة والمقاومة فلم تضعف، يشدد الأكرف على ذلك، فقوة السبك والشاعرية التي تفتقدها قصائد الوجد اليوم، نجدها حاضرة بقوة في قصائد الغضب والعنفوان: "بعض الشعراء الذين لم يتناولوا قضايا الشعوب، وجدوا أنفسهم مرغمين على التحلّق حولها لحضور هذه القضايا لدى الشعوب". مشيرًا إلى أن الأصوات التي كانت ترتفع من المدرسة الفقهية مناديةً بعدم جواز اللطم إلا على الحسين عليه السلام منذ الثمانينات فهمت اليوم أن الحسينَ هو صدى الميادين جميعها: "الحسين هو ملهم الساحات، وملهم صبر الناس، ولا يمكن بغير الحسين عليه السلام أن نصنع مواساةً أو ان نشحذ هممًا".

الحزن مقدّس

القصيدة في الواقع ليست مجرد نعي ورثاء". هي بالنسبة إلى الأكرف رسالية وتوعوية ومسؤولية تبليغ وتنبيه: "لابد أن ننبّه الأمة إلى قضاياها". يقرب الشيخ لنا الصورة عبر الحديث عن موكب البحرين، وما يشكّله من منارة إضاءة على قضايا الناس، فهو ترجمان خطب الجمعة، على حد تعبيره، ومن يحضر الموكب يتعرف إلى القضايا المهمة: "وأين يجب أن نكون"، هذه صناعة جديدة في الموكب، وحضور جديد، وما ينبغي للموكب والسيرة الحسينية أن تكونا عليه: "السيرة الحسينية ليست فسحة لدمعتك، بل هي مكان يتخلّى الإنسان عن كل همومه الشخصية، ويستمر بدمعة حسينية حقيقية تحمل كل الهم الحسيني، الهم الذي يحمله الحسين لأجل الناس، هو حزن مقدّس وليس حزنًا تقليديًا ساذجًا بأن ثمة رجلاً قتل**!!**"
يستشهد الأكرف بقول للشيخ عباس الكعبي : "إن الرواديد أو الخطباء الذين لا تؤذي كلمتهم الطواغيت، وتدخل الغيظ إلى قلوب المستكبرين، هؤلاء ليسوا خدمة للإمام الحسين بل خدمَ أنفسهم، فهم فقط مواسوون للحسين". فالكلمة الحسينية والخدمة الحسينية بنظر الأكرف تعنيان المواجهة: "دالة على الخير ناصرة للحق ومدكدكة للظالم".

المقاومة بيت القصيد

في الحديث عن قضايا الشعوب العربية كان لابد لفلسطين أن تحضر، لسيدة للقضايا والمتلهمة لكل المقاومات، وفي كلام الأكرف: "القضية الأم، والعنصر المشترك، وساحة مواجهة العدو الحقيقي".

يعتبر الشيخ حسين الأكرف أن العدو الصهيوني هو رأس بلاءات المنطقة ومن وراءه الولايات المتحدة الأميركية والمملكة البريطانية. وفي المقابل هناك من يحفظ للأمة كراماتها ومقدساتها "اليوم هذا إنتاجها، هذا عملها، ليس دمويًا، بل حماية الإنسان والمقدس من التاريخ والتراث والمسجد والكنيسة".

التشيع أهم تجلياتي الإنسانية

ليست هنالك قصيدة مفضلّة بالنسبة لحسين الأكرف، فهو دائمًا ما يحب التجديد، إلا أنه يفتخر بتلك التي تعكس إنسانيته البحتة دون أي علامات فارقة تحدد جمهوره الواسع. فقد قدم الأكرف ويقدم، أناشيد تتجلّى فيها الصفات الإنسانية دون أي شيء آخر، ما لاقى إقبالاً مهمًّا من خارج الطائفة الشيعية وحتى من خارج الإسلام. يُبدي الشيخ سروره حيال هذا المجال حيث "التخادم الإنساني"، وهذا أهم تجليّات عمله بنظره. أما عن دوره في حُسن تمثيل التشيع، ونقل صورته الحقيقية، فيقول: "أهل البيت هم السباقون لنبذ الفرقة وتوحيد الكلمة، وهذه رسالة كلّ محبي أهل البيت، ومَن لم يكن كذلك فهو ليس من اتباعهم، بل في شبهة كما يوجد في الطوائق الأخرى".

يعتبر الشيخ حسين نفسه من اتباع مدرسة عقائدية وفكرية وفقهية منهجها التقارب والوحدة حيث تعلمنا أن: "الضعف في الفرقة، والقوة كل القوة في وحدة الكلمة" ويردف قائلًا: "وأنا أتجول بهذا المعنى وهذا المضمون أينما ذهبت، وأقصد أن أظهر هذه الحقيقة الذي تغيب بالإعلام المأجور والقمع والإرهاب، ولكن نحن كما نحن، لو خلي لنا الأمر وتركنا وشأننا لأثبتنا للعالم كلّه أننا دعاة وحدة، ولسنا نستبطنُ أيّ شيء وراء كلمة يا أيها المسلمون اتحدوا! فالعدو يستفيد من فرقتنا ويخشى من توحّدنا".

في الختام كان لا بد من نهاية بخلاصة تقول: الصوت يشبه صاحبه، عذب كروحه، قوي كموهبته، وجهوري كقضيته.